

الغناء والتسلية الشعبية بسلا خلال القرنين 18 و19

محمد السعديين*

تمثل الموسيقى والغناء والتسلية الشعبية حقلا هاما من حقول البحث التاريخي بما يتيح من فهم لبعض ضوابط المجتمع وميكانيزماته. كما أنه يغري الباحث بصورة أفيد لما يحمله من الدلالات على مدى دسامة الإرث الحضاري لهذه المدينة أو تلك. بيد أن الخوض فيه يكتنفه شح المادة المصدرة، باعتبار أن المؤرخين القدامى التزموا الصمت عن الحديث عن مثل هذه المواضيع وكأنها تدخل في عداد المسكوت عنه. ومع ذلك، ينبغي عدم التسرع في إصدار حكم نهائي عن المؤرخين السلاويين مادامت كثير من مؤلفات ابن علي الدكالي في حكم المجهول¹ وما دامت نسبة هامة من الإنتاج الفكري لبلديه حبيسة الخزانات الخاصة. وقد انبرى المرحوم محمد الفاسي لإمطة الشام عن فن الملحون وأعلامه بسلا²، إلا أن مهمة الباحث تصير أصعب فأصعب كلما حاول الرجوع إلى ما قبل القرن التاسع عشر.

وسنحاول في هذا العرض المتواضع، وفي حدود الإشارات المتوفرة، إبراز مدى اهتمام أهل سلا بالموسيقى والغناء خلال الحقبة التاريخية المشار إليها والوقوف على المكانة التي تبوأها التسلية الشعبية في المجتمع السلاوي.

* أستاذ باحث - فاس.

¹ - عن مؤلفات ابن علي الدكالي السلاوي المجهولة المظان، انظر: ابن علي الدكالي، الإنعاف الرجيز، تح. مصطفى بوشعراء الرباط، المعارف الجديدة، 1996، مقدمة التحقيق، ص. 8-10.

² - محمد الفاسي، شعراء الملحون السلاويون، الماهل، 1985، العدد 33، ص. 7-34.

عراقة الموسيقى والغناء بسلا

من يتتبع أخبار بدايات "سلا الحديثة"³ يجد ذكر أبي الحسن علي بن الحمارة الغرناطي⁴، تلميذ ابن باجة -إمام التلاحين الأندلسية- الذي دخل سلا بعد سنة 1030/1029م واتصل بقاضيها أبي العباس بن القاسم بن عشرة⁵، كان ممن برع في الألحان وعلمها⁶. ويبدو أن مدينة سلا نالت في هذا الوقت المبكر من تاريخها نصيبها من ذلك، مما يفيد بأن الموسيقى عريقة بسلا عراقة هذه الحاضرة نفسها. وقد سطر ابن علي الدكالي السلاوي في إتحافه الوجيز هذه الملاحظة حيث أشار إلى أن بلديه كانوا يحسنون علم الأغاني وضرب العود وغيره من آلة الطرب⁷. وتجدر الإشارة إلى أن شيخه أحمد الناصري - صاحب الاستقصا- قد ألف رسالتين في فن الموسيقى بحث في إحداها في النغمات العربية والمقابلة بينها وبين الموسيقى العجمية⁸، الأمر الذي يوشر على أن الموسيقى لم تغب عن أذهان علماء سلا وسكنتها بصفة عامة. ولا ننسى أن الطبيعة الأخاذة لمدينتهم والمتمثلة في سيادة البساتين المزدانة بالأزهار والرياحين، كانت توحى بجو الطرب والغناء. ويمكن رصد ذلك من خلال الأشعار الكثيرة التي نظمت في جمالها الطبيعي⁹.

³ - غيز بين "سلا الحديثة" التي تأسست بين شاطئ البحر ومصب نهر أبي ررقاق أواخر ق. 10/4م و"سلا القديمة" التي كانت بمحوار عين إصير قبل أكثر من ثلاثة آلاف عام والتي اشترك في تأسيسها عنصران: بنو عشرة وبنو يفرن الزناتيون.

انظر:- مجهول، الاستقصا، تج: سعد زغلول عبد الحميد، ط2، الدار البيضاء، 1985، ص: 140.

⁴ - كان علي بن الحمارة من الأدباء والشعراء الذين حلوا بسلا من أجل تقديم التهاني للعشرين بمناسبة تشييد قصر الطالعة بها.

أحمد الصبيحي، أمودج في تاريخ سلا، مخ. خ. الصبيحية بسلا، رقم 435، ص: 3-5.

محمد بشريفة، أسرة بني العشرة، تطورها التاريخي ودورها الحضاري، مجلة البحث العلمي، 1967، عدد 10، ص: 76.

⁵ - أحمد بن علي بن القاسم ابن عشرة هو باني قصر بني العشرة بحي الطالعة بعد 1030-29/420. امتدت حياته إلى ما بعد سنة 1122-1121/515.

انظر: الإتحاف الوجيز، م.س.ص.ص. 72-73.

⁶ - محمد المنوني، تاريخ الموسيقى الأندلسية بالمغرب، مجلة البحث العلمي، 1969، العدد 14-15، ص: 150.

⁷ - الإتحاف الوجيز، م.س.ص.ص. 42.

⁸ - أحمد الناصري، الاستقصا، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1956، ج. 1، ص: 32.

⁹ - نجاة المريني، مدينة سلا في ذاكرة الشعراء، ضمن: سلا ذاكرة وحضور، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1999، ص: 17-.

وينبغي أن نستحضر كذلك الدور الروحي للموسيقى باعتبار أن أهل سلا عرفوا بورعهم وشدة تدينهم. ألم يكن أرباب الطبول والمزامير يصبحون كل يوم يضربون أمام باب الشيخ عبد الله بن حسون النوبات الموسيقية¹⁰؟ ألم يواكب الاهتمام بالاحتفال بعيد المولد النبوي بسلا تطور الموسيقى لكون السلاويين دأبوا على عزف بعض الألحان، لاسيما خلال حفل موكب الشموع¹¹؟ إلى جانب الدور الروحي الذي أنيط بالموسيقى، فقد ظلت تمارس دورها الطبيعي في خلق أجواء الرفه والأنس. ومن الأمثلة الدالة على ذلك الحضور الملفت للطبول والمزامير وغيرها من الآلات الموسيقية بمناسبة استقبال أهل سلا السلاطين والسفراء والمجاهدين البحرين. ونشير في هذا الصدد إلى أن الأسرى وغنائم الجهاد البحري كانوا يعرضون في دار معدة لذلك تزورها العامة والخاصة وتضرب الطبول والمزامير وآلات الطرب فرحا بالرئيس واحتفالا به. أما الدار المذكورة فتقع في باب احسين، مجاورة لمسجد المريني. ولعلها- اليوم- دار الأشراف الكتانين¹². تجسد هذه الصورة والتي كانت تتكرر أيام أوج الجهاد البحري شغف السلاويين بالموسيقى والطرب.

الموسيقى والغناء بسلا خلال القرنين 18 و19

ونحن إذا أردنا أن نقف على تطور منحى اهتمام أهل سلا بالموسيقى والغناء خلال القرن الثاني عشر/18م، فإننا نلاحظ أن المصادر لم تول أهمية كبرى لهذا الجانب. ومن حسن الحظ أن بعض السفراء الذين زاروا مدينة سلا قد أمدونا بمعلومات مفيدة عن ذلك. ومن هؤلاء نجد المهدي الغزال الذي قدم تفاصيل دقيقة عن الاستقبال الذي خص به أهل سلا أعضاء السفارة التي بعثها السلطان محمد بن عبد الله عام 1766 للقيام بمهمة لدى ملك إسبانيا كارلوس الثالث من أجل تحرير

¹⁰ - م. القادري، نشر الثاني، تج. م. حجي وأحمد التوفيق، الرباط، مكتبة الطالب، 1986، ج.1، ص: 130.

¹¹ - ابن علي الذكالي، نبذ من تاريخ سلا، مخ. خ.ص، رقم 534، صفحات غير مرقمة.

Loubignac(V), La procession de cierges à Salé, in Hesperis, 1948, p.p.5-30.

¹² - جعفر الناصري، سلا ورباط الفتح: أسطولهما وقرصنتهما الجهادية، تج: أحمد بن جعفر الناصري، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية،

الأسرى وتبادلهم وعقد معاهدة صلح¹³. وقد اعتمد الغزال في وصفه على المعاينة حيث يقول: "وعبرنا المدينة [سلا] بين صفوف من الخلق مع النوبة وغيرها من آلة الطرب... وكانت إقامتنا بسلا يومين"¹⁴.

إن ما يهمنا من هذا الوصف هو أنه يبرز ضخامة الاستقبال وأهتته، فضلا عن كون عنصر التلميح إلى تعدد الآلات الموسيقية التي كانت تصدح فرحا بأعضاء الوفد يبقى إشارة بليغة إلى ولوع السلاويين بالموسيقى والطرب وباعهم الطويل في هذا الفن، بل إن ما يميز سلا عن الخواضر المغربية الأخرى أنها كانت مهد السماع¹⁵.

كما قدم الضعيف أحد المشاهد التي تجسد ذوق السلاويين الرفيع في الموسيقى والغناء وذلك بمناسبة تعويم سفينة جديدة يوم الجمعة 13 جمادى الأولى 13/1229 ماي 1814 حيث "صنع القائد عشعاش تسعة طيافر من الطعام وبعثها لهذه السفينة وتزده الرباس بالآلة"¹⁶. إن عدد "الطيافر" المذكور يبرز بجلاء كثرة المحتفلين وأجواء المرح التي كانت تخيم عليهم بالمناسبة المشار إليها. وبالطبع، فإن هذا المشهد كان يتكرر أيام ازدهار صناعة السفن بأوراش ميناء سلا. وتذكرنا هذه الأجواء بعادة استحمام السلاويين بعين إسميروجنات مطانة وغيرها¹⁷. ولا نستبعد حضور الموسيقى والغناء في هذه المناسبات.

وبعيدا عن أماكن الاستحمام، نشير إلى ظاهرة المجالس الخاصة حيث لم يكن يهود سلا الذين عرفوا بالإقبال على حياة الأنس والمتعة يترددون في استقبال -ولو خفية- فئات من الشباب المسلمين الراغبين في حياة السلو والمنادمة وسماع الموسيقى في بيوتهم¹⁸. ولا ندري هل كان الشباب السلاويون المسلمون يقومون بدورهم باستضافة جيرانهم اليهود من أجل نفس الغاية.

¹³ - المهدي الغزال، نتيجة الاجتهاد، في المهادنة والجهاد، تح: إسماعيل العربي، الجزائر، المطبوعات الجامعية، 1984، ص: 224.

¹⁴ - نفسه، ص: 227.

¹⁵ - Alaoui Ismail et autres, Salé cité millénaire, Editions Eclat, 1997, p:150.

¹⁶ - الضعيف، تاريخ، تح: م. البوزيدي، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1988، ج. 2، ص: 711.

¹⁷ - الإنحاف الوجيز، م.س، ص: 58.

¹⁸ - محمد زنيير، سلا ومكناس في الماضي، ضمن المغرب في العصر الوسيط، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 1999، ص: 324.

ولعل المتفحص لأخبار الموسيقى والغناء يدرك ما وصل إليه فن الملحن¹⁹ من ازدهار في سلا. وعد المرحوم محمد الفاسي هذه المدينة من أنصب البقاع لظهور شعراء الملحن إلى جانب مراکش وفاس ومكناس وازمور²⁰.

وما يسترعي الانتباه هو أن بعض فحول شعراء الملحن الذين ينتمون إلى مناطق مغربية أخرى نبغوا في سلا، كما هو شأن عبد السلام الشرقاوي-أصله من أبي الجعد- الذي عاش في أيام السلطان محمد بن عبد الله وصدرًا من عهد المولى سليمان وهو المعنى في قول شيخ الملحن الجيلالي مثيرد-معاصره- "رايس الفرسان سلاوي"²¹. وكان من الطبيعي أن يلتفت هذا الشاعر إلى أبرز صلحاء مسقط رأسه، أبي عبيد الشرقي في إحدى قصائده حيث يقول في حربتها :

أزايير العمري جل في أشعاري

وتأمل في مديح سيد أسيادي

أبو عبيد الأفضل من عرب قريش فاض نيله

ولد الفاروق سيدنا عمر²².

ويبدو أن صلحاء سلا نالوا نصيبهم من أشعار عبد السلام الشرقاوي، إلا أننا لم نقف على شيء من ذلك، شأنه في ذلك شأن ابن عمرو السلاوي الذي عاصر المولى يزيد (1204-1206/1790-1792)²³، و بوعزة ولد بقاله الذي كان في مطلع القرن 19/13 من أشياخ الملحن بسلا²⁴ وعلال السدراتي ومحمد بن الحاج عبد الغني بلحسن المتوفى في 02 ذي القعدة 1273/24 يونيو 1857. وقد وصف هذا الأخير في

¹⁹ - يعد الملحن أو ما يعرف بالموشحات والرجل من بقايا الموسيقى الشرقية العربية المتأثرة بمؤثرات إفريقية وفارسية، والتي خضعت لتطوير متواصل على يد الأندلسيين وضعاً ولحناً.

انظر، إبراهيم حر كات، الحياة الاحتماكية في عصر بني مرين، مجلة كلية الآداب، الرباط، 1979، العدد 5-6، ص: 47.

²⁰ - م. الفاسي، شعراء الملحن السلاويون، م.س، ص: 8.

²¹ - نفسه، ص: 9.

²² - نفسه.

²³ - نفسه.

²⁴ - الإغاثف الوجيز، م.س، ذيل، ص: 266.

قصيدته التي تحمل عنوان "الجهادية" أو "السلوانية"²⁵ آثار العدوان الفرنسي على مدينة سلا سنة 1851/1268 ونشوة فرح سكانها بما حققوه من نصر، وحربتها:

آبن حسون آفارس لعناية سلطان اسلا أنت وسيدي بنعاشر
آبلاد لمجاهدين والله ابلادكم لا دخلوها كفار
ومنها:

هدوه آبحرب شديد، بعد جاننا بشقوف النار
ولقاوه هل ليما بالمدافع والكور حتى ادهاو لكريه الداسر
طاح أعلام وتشتت ألواح معمي البصار²⁶

وتعتبر "السلوانية" وثيقة تاريخية هامة، فبالإضافة إلى كونها وصفت بدقة العدوان المذكور وشجاعة السلوانيين في مواجهته، فإنها قدمت لوحة مفصلة عن كثير من صلحاء سلا الذين تم التوسل بهم لدرء خطر المعتدين. ومما جاء فيها:

صلاح سلا لاسياد نمجد	هما احجابنا ويقهر بالطغيان
مول الكمري سيدي امحمد	ونقول لمفضل امير الشجعان
والطالب فيه كثير نمجد	ودا مجدتكم أسيادي ظمان

....

هداك انهار الصالحين حضروا من كل امزار

....

سيدي بلعباس لهمام عز المسكين واللي يكون في البحور آمسافر²⁷

²⁵ - انظر نص القصيدة عند أحمد معنيو، الغارة الفرنسية على مدينة سلا عام 1851/1268 من خلال قصيدة الملحون، مجلة البحث

العلمي، 1985، العدد 33، ص.ص: 203-218.

²⁶ - نفسه، ص: 207.

²⁷ - ن.م.س، ص.ص: 208-209.

تعكس هذه النماذج أهمية الملحون بالمجتمع السلاوي، الأمر الذي يفسر ازدهاره فيما بعد أي خلال عهدي السلطانين المولى عبد الرحمان ومحمد بن عبد الرحمان، وهي الفترة التي يطلق عليها رجال الملحون "وقت صابة الأشياخ"²⁸.

ويلاحظ المتتبع لحرف سلا، أن محلات الصناعات كثيرا ما كانت مسرحا لإبداع وإنشاد الشعر الملحون، بل إن أغلب المنشدين نشأوا في مناخ الصناعة أمثال محمد الشليح البناء وبوعزة الدريكي ولد بقالة الخراز والحاج المامون بن نصر العلوي الدباغ ومحمد البري الدراز²⁹. والملاحظ أن كثيرا من شعراء الملحون السلاويين وغيرهم اشتغلوا بمهنة الحياكة حيث "كان سير الترق في المنسج يوحى إليهم مع استعدادات أخرى إيقاع الميزان في أنفسهم"³⁰. وتجدد الإشارة إلى أن لغة الملحون تنطوي على العديد من الوحدات المعجمية ذات الأصل الحرفي نحو "المرمة" و"القياس" و"خيظ". بمعنى نظم الشعر، و"زيواني" نسبة إلى لون أصفر تعرف به "البلغة"³¹.

وفيما يخص مواضيع الملحون فهي متنوعة، وتعد قصيدة "القلب" إحدى أشهر قصائد محمد البري، وهي في الحكم وحربتها:

من كرهك يا لقلب كرهوا واش بك انت امسيدو
من بالك غير حيدو خليه علا اهواه
لا تدخل أسواق المعاندة

ومنها:

إلى كان نواح طلبية غيوانك غير بعده

²⁸- م. الفاسي، شعراء الملحون السلاويون، م.س، ص: 12.

²⁹- الحاج محمد البري من أجل شعراء الملحون السلاويين خلال ق19/13 وطراراه مازال معروفا قرب باب سبتة بجوار مسجد الموقف بسلا.

³⁰- م. الفاسي، شعراء الملحون من أهل مكناس وزرهون، مجلة المناهل، 1983، العدد27، ص: 10.

³¹- عبد الوهاب الفيلاي، القيمة الاقتصادية لفن الملحون بين محاولة التحسيس وإمكانية التفعيل، جريدة العلم، الملحق الثقافي، 22-12-

المعوج بيد نسكده
و مع طبعي نكاده
لمدرقي بخيط
بحيط نسدل تنافده
وعلى حافة تسنده³².

وتعالج قصائد أخرى مواضيع تم التوسل بالصلحاء كقصيدة البري التي طالما ردها
السللاويون والتي يقول في مستهلها :

يا من لا يسها أو لا ينام
واغفر يا مولاي زلتي
فملكو يا دلم لبقا وجهنا للخير
بنبيك الصادق معا آلو

.....

وأنا كيف تكون ساعتي
ذني قد الأرض و السما والبحر
يوم أرواح لبيت قبري واسالو
المحيط غايو والله به خير³³.
كما عالجت مواضيع أخرى كالتراع بين الحرفيين وموضوع المرأة الوارد -مثلا- في
قصيدة البري "جمهور البنات" والتي يقول فيها:

عقلي فالسالبات عقلي، كحلات العين والحواجب
وين أما ريتهم نتضرع دون هوايا³⁴

ونجد كثيرا من القصائد تحمل أسماء نساء مثل "زهرة" و"طامو" و"خدوج" وغيرها،
مع العلم أن من عادة بعض شعراء الملحنون إطلاق أسماء الغادات على بعض
روائعهم.

يبدو بوضوح أن مدينة سلا حاضرة الملحنون بامتياز، باعتبار أثر الشعر والموسيقى
الأندلسية وما ترتب عنها من محاولة تطويعهما وجعلهما مادتين شعبيتين³⁵.

³² - اقتصر محمد القاسي على إيراد الحرية، أما باقي أبيات قصيدة القلب فقد أمدني بها -مشكوراً- السيد الكحيلي، العامل بحمام الشليح

بسلا.

³³ - أورد القصيدة عبد الله شقرون في كتابه: فن الملحنون في مدينة سلا، الدار البيضاء، مطبعة النحاح الجديدة، 2009، ص: 20.

³⁴ - ن.م.س، ص: 22.

³⁵ - عبد الرحمان الكرومي، فن الملحنون بسلا، ضمن ذاكرة مدينة سلا 1912-1956، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي،

2010، ص: 190.

الغناء والحلقة

لم تكن تخلو الحلقات أو "الحلّاقى" حسب التعبير العامي من الغناء، إلا أن اللافث للانتباه هو أن مدينة سلا بالرغم من وقوعها بين العاصمتين التقليديتين: فاس ومراكش واللتين اشتهرتا بالجالس الترفيهى التى تعقد فى الساحات العمومية، فإن مصادرها تلوذ بالصمت عن ذلك بالنسبة لسلا. ويكفى أن نشير إلى أن الحسن الوزان قد أرخى العنان لقلمه عند حديثه عن فاس ليقدّم وصفاً فى منتهى الدقة لجو الطرب والغناء وغيرهما بهذه الحلقات³⁶. بيد أنه عندما زار مدينة سلا سنة 914/1508 فإنه لم يعر أي اهتمام لهذا الموضوع³⁷. فهل هذا يعنى عدم وجودها فى هذه المدينة خلال تلك الفترة. إننا نجد فى متانة جسور التواصل البشرى و الروحي والثقافي والاقتصادي بين فاس وسلا ما يجعلنا نستبعد فرضية عدم وجود الحلقات بسلا خلا القرن 16/10.

مهما يكن من أمر، فإن ظاهرة الحلقة عرفت كثيراً فى سلا خلال فترة الحماية وكانت تستقطب جمهوراً واسعاً. وساعد على ذلك عاملان: التوقيت الشمسي المعمول به آنذاك عند الحرفيين الذين كانوا يشتغلون من الشروق إلى العصر، وقلة أو انعدام وسائل الترفيه داخل البيت أو خارجه³⁸. واشتهرت فى سلا ساحتان لعقد الحلّاقى: الأولى خارج باب فاس والثانية وسط المدينة فى السوق الكبير، وتعمّر بين العشاءين وتمتاز حلّاقى الليل هاته بطابع الغناء والرقص، لاسيما عندما تقوم "رباعة الروايس" السوسية بزيارة المدينة. إلا أن ألمع نجوم هذه الساحة هو الحسين السلاوي وبوجمة الفروج ومولاي ابيه³⁹. وقد استهل الحسين السلاوي مساره الفنى بغناء بعض قصائد الملحون⁴⁰. ثم بدأ فى نقل فنون البادية وتقريبها من مجتمع الحواضر الذي بدأ يتطور ابتداءً من الثلاثينيات. لقد تغنى هذا الفنان بحمال طبيعة سلا مثل

³⁶ - الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الرباط، 1980، ج1، ص: 214.

³⁷ - نفسه، ج1، ص: 164-165.

³⁸ - محمد حجي، الحلقة والتسليه الشعبية، ضمن جولات تاريخية، دار الغرب الإسلامى، بيروت، 1995، ج2، ص: 715.

³⁹ - Alaoui Ismail, Salé op.cit, p.150.

⁴⁰ - غلال ركوك، من ذاكرة الأغنية السلاوية، نموذج الحسين السلاوي، ضمن سلا ذاكرة، م.س، ص: 195.

أغاني "السانية والبير" و"يعجبني شط البحر" و"ما أحلى التراها مع الناس لقدام لدوزوا فالدنيا شلا ايام، معاهم نكعد ونحفظ يا سلام"⁴¹.

كان الحسين السلاوي يتغزل بالحاضرات في أزجاله التي يرتجلها وهو يغني ويطوف بالحلقة شبه راقص فتسمعه -مثلا- يقول: "دوك العيون الكوخل"، محدقا في إحدى التحلقات التي قد تخجل وتنسحب⁴². كما كان يغني أغنية "أزيد شويا أمولاي اليزيد" التي تدخل في عداد الأغاني التي تخدش الحياء⁴³.

وإذا أمعنا النظر في منتج الحسين السلاوي نراه يهتم كثيرا بموضوع المرأة كقوله:

سمرا خمورية
والشفة العكرية وخدود التفاح
حبها خلاني حائر في التنواح
بنت الأندلسية تبرد الجراح

وأغنية "أنا في حماك ألالة هنية"، وما يقول فيها:

عييت نسقسي فيك الغوالي
الله يهديك يا زينت سميا⁴⁴.

ومن أروع أغانيه هي تلك التي تعرض فيها إلى فترة نزول القوات الأمريكية بالمغرب سنة 1942 وما أفرزته من ممارسات جديدة. وما يقول فيها:

ايا ياي على هاد الزمان وشنو صار
دخلت مركان والناس تقوات والنساء علينا جاروا
حتى من العكيزات داروا النكاب على الشوينكوم ساروا المزوجات داروا سباب على
رجالتهم غابوا

.....

شحال من هي معشوقة دارو لها الشان، إلا المركان

⁴¹ - نفسه، ص: 201.

⁴² - م. حجي، الحلقة، م. س، ج2، ص: 717-718.

⁴³ - عبد الله شقرون، طفولة وشباب على ضفاف أبي رقرق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2008، ص: 80.

⁴⁴ - انظر نص الأغنية عند علال ركوك، من ذاكرة الأغنية، م. س، ص: 203.

تسمع غير أوكي أوكي هذا ما كان

.....

فرقوا الفانيد والسيكار زادو الدولار

حتى من العكيزات الكبار شراو الفولار

حتى من الصغیورات حفظوا اللسان المریکان

تسمع غير أوكي أوكي كمان باي باي

.....

شحال من هي معشوقة ولاث باللاثام

والصاك أمان مع المركان

ما تسمع غير أوكي أوكي كيف مي دولار⁴⁵.

لهذا النص قيمة علمية دسمة لما يحمله من ظواهر طالت المجتمع السلاوي بصفة خاصة والمغربي بصفة عامة ومنها ما يدخل في عداد المسكوت عنه، لاسيما ما يتعلق بعالم المرأة وما لحق به من ممارسات دونية ولا أخلاقية. وتجدد الإشارة إلى أن السلاويين كانوا شغوفين بحلقة الحسين السلاوي ويحسون بفراغ مريع عندما يتغيب عن مدينة سلا. وإذا أشرنا من قبل إلى حضور بعض النسوة في حلقاته، فالمرجح أنهن من النازحات إلى سلا، أما السلاويات العريقات فكن يستمتعن بغناء المسمعات.

المسمعات

يقصد بالمسمعات النسوة اللواتي يرددن السماع والذكر في الولائم والمناسبات الدينية في دور السلاويين والزوايا والأضرحة، ويعرفن كذلك باسم المغنيات النقيات. واشتهرت من بينهن في بداية الحماية زائدة وجوهرة ومبريكة الراحة وأمة الزرداني⁴⁶ وفاطمة داودة والحسونة وللا ضخرة⁴⁷.

⁴⁵ - نفسه، ص.ص: 197-198.

⁴⁶ - أحمد الصبيحي، كئاش الحسية، مخ. خ. الصبيحية، رقم 234، ج6، ص: 102.

⁴⁷ - أمديني السيد محمد البوعزاوي بأسماء بعض المسمعات اللواتي كن خلال فترة الحماية بسلا، فإنه مني كامل الشكر.

ويلاحظ أن أغلبهن من الإماء. وكن منضويات في تنظيم شبه حرفي حيث نجد منهن المعلمة مثل زائدة والمتعلمة مثل جوهرة التي أصبحت فيما بعد هي أمينة المسمعات⁴⁸. ويبدو أن هذه المهمة قد أسندت إليها بعد وفاة معلمتها المذكورة. ولم تسعفنا المصادر التي أمكن الاطلاع عليها في معرفة القدر المالي المحصل عليه من لدن المسمعات مقابل غنائهن. وقد أشارت إحدى النوازل إلى أن من له أمة مغنية في الأعراس والنفاس وغير ذلك من الأفراح فلا يجوز لمولاها أن ينتفع بما في يدها مما يعطاها على ذلك ولا يجوز ولا له أكله⁴⁹. يترأى من هذه النازلة أن المسمعة الأمة كانت تحصل على أجر معلوم تقدم جزءاً منه إلى مولاها. مهما يكن، فإن مثل هذه الجلسات الترفيهية كانت تجد إقبالاً من لدن السلاويات. فمنانة حضرية السلاوية التي عاشت - فيما يبدو - في عهد المولى يوسف (1913-1927) كانت من المسمعات تنظم الذكر والمديح وتلقي إنتاجها في مجامع النساء⁵⁰، شأنها في ذلك شأن للا خدوج بنت للا فاطمة القادرية التي كان يجتمع حولها النساء بالزاوية القادرية وغيرها للذكر⁵¹. وحذت حذوها للا الهاشمية⁵². ويعتبر التوسل بصلحاء سلا من المواضيع التي تفرض نفسها في مثل هذه المجالس. فخلال شهر صفر تجتمع السلاويات بضريح سيدي الهاشمي الطالب لنفس الغاية. ومما تقوله المسمعات:

سيدي أحمد الطالب⁵³ قاري وعالم

قاري وعالم يا بابا

سيدي أحمد حمداني كترتي ومالي

⁴⁸ - أحمد الصيحي، كشاش الحسبة، م.س، ص: 102.

⁴⁹ - أحمد الونشريسي، المعيار، تع. م. حجي وآخرون، بيروت، 1984، ج. 5، ص: 188.

⁵⁰ - م. الفاسي، شعراء الملحون السلاويون، م.س، ص: 26.

⁵¹ - أبو بكر القادري، الشيخ عبد القادر الجيلاني ودوره في الدعوة الإسلامية في أنحاء العالمين: الآسيوي والإفريقي، مطبعة النجاح

الجديدة، الدار البيضاء، 1999، ص: 364.

⁵² - ن. م.س.

⁵³ - كان أحمد الطالب القصري السلاوي عالماً وصالحاً. أخذ العلم عن الشيخ محمد (فتح) بن سعيد العتاي، تلميذ الشيخ عبد الله بن حسون. يعتبر المترجم أول قادم من الطالبين إلى سلا. توفي سنة 1072 / 1662 وضرجه مشهور قرب المسجد الأعظم هذه الحاضرة.

- الإنحاف الوجيز، م.س، ص: 121-122..

كثري ومالي يا بابا
 ويلا تحضرو تحضرو مكة وزمزم ويلا تغيرو يتغير حالي
 ولاد سيدي نظرو من حالي
 سيدي أحمد بورقية ضوي عليا ضوي عليا يازين الحالة
 ولاد سيدي نظرو من حالي⁵⁴

ومن نظمهن كذلك:

الله يا الله سهل لي نزور النبي أنا والديا واهلي واحبابي

...

ضامن سلا يجيها من بعيد وجميع من اغتمها ما يمشي سالي
 آسيدي الطالب

أنا جيت عطشان شربت من وراك
 أنا جيت جيعان وكلوني ولادك
 أنا جيت عريان نعيش من فضالك

.. الله يا الله سهل لي نزور النبي أنا والديا واهلي وولادي.
 ويلا اعطاك العاطي ما زال يعطي ويلا كلع ليك ما بيدك حيلة
 يا اولاد الطالب ما فيكم تالي⁵⁵

إن ما كان يروج في هذه الجلسات الترفيهية مؤشر قوي على توجه السلويات إلى
 الغناء النقي لما يحمله من دلالات عميقة تتماشى مع ماضيهن التليد.

الشيخات

"الشيخات" تعني النساء اللواتي يتخذن من الغناء والرقص حرفة، وهي ترادف
 أحيانا معاني قدحية مثل العاهرات. وتشير الوثائق المخزنية إلى شيخات متميزات كن

⁵⁴ - أمدين هما - مشكورا - صديقي الأستاذ محمد أجمار.

⁵⁵ - نفسه.

يزاولن عملهن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، لاسيما في مدن فاس ومكناس ومراكش. نذكر منهن: الحاجة فاطمة المعروفة باسم "الحويجة" وطاجينة وأم كلثوم والتونية ومسعودة الرباطية⁵⁶. وليس بأيدينا ما يدل على أن هؤلاء أو غيرهن قد نظمن فرجة بمدينة سلا خلال الفترة المذكورة. أما في بداية الحماية فقد برزت هذه الظاهرة بوضوح في هذه المدينة، وهي تعكس التصدع والتخلخل الذي أصاب نظم وبني المجتمع المغربي التقليدي في اتصاله مع الأوروبيين⁵⁷. وبالطبع، فإن هؤلاء الشيخات ينحذرن من أوساط ريفية وكن في الغالب فقيرات أو مطلقات. كانت هذه الظاهرة -وما تزال- تزجج السلاويين الأقحاح، لاسيما بعد أن تنامت بفعل الهجرة القروية نحو المدن. فلا غرابة إذا أقبل عامل المدينة على تنظيم الفرجة التي نحن بصدددها حيث فرض على كل من يرغب في الفرجة بالشيخات ليلا أو نهارا دفع خمس "بساسيط" لصندوق دار الأشغال البلدية بسلا للحصول على الإذن للقيام بذلك⁵⁸. ولم يكن محتسب المدينة، أحمد الصبيحي يسمح بإقامة تلك الفرجات إلا بعد أن تؤدي الشيخات كذلك خمس "بساسيط" على كل فرجة كانت صغيرة أو كبيرة ويدفع هو المبلغ للصندوق البلدي⁵⁹، أي أن هذا الأخير أضحي يجني من كل فرجة بالشيخات عشر بساسيط. وقد أشار المحتسب المذكور في تقييد عام 1333/ 1917 إلى أنه لم يقع خلال فترة توليه مهمة الحسبة تنظيم الفرجة بالشيخات⁶⁰. وإذا علمنا أن هذه الفترة امتدت أربع سنوات (1915-1918)، أدركنا قلة إقامة الفرجة المذكورة يومئذ بسلا. ومن غير المستبعد أن الصبيحي -آنف الذكر- كان يسلك شتى السبل لتفاديها باعتبارها لا تتماشى مع أخلاق أعرق الأسر السلاوية.. وعلى النقيض من ذلك، تظهر النوايا الحقيقية لسلطات الحماية، حيث كانت تسمح

⁵⁶ - كئاش الخزنة الحسنية، رقم 204، ص: 169.

- فاطمة العيساوي، المرأة والمجتمع 1822-1912، أطروحة مرقونة، كلية الآداب، الرباط، 2009، ص.ص: 281-288.

⁵⁷ - غلال ركوك، الشيعات، معلمة المغرب، مطابع سلا، 2002، ج 16، ص.ص: 5443-5444.

⁵⁸ - أحمد الصبيحي، كئاش الحسبة، م.س، ج.3، ص: 58.

⁵⁹ - نفسه.

⁶⁰ - نفسه.

للمراغبيين في إقامة تلك الفرجات بعدم دفع أي مقابل مادي بمناسبة عيدي الفطر والأضحى وعاشوراء والمولد النبوي⁶¹. ولا يحتاج المرء أن يجشم نفسه عناء البحث عن أدلة تثبت بأن الهدف من وراء ذلك هو ترسيخ التفسخ الخلقي وزرع الفتور الديني بين أهالي المدينة، علما بأن الفرجة بالشيخات لم تكن حكرا على الرجال. بل كانت النساء يتابعن رقصهن وغناهن انطلاقا من سطوح المنازل أو من الصفوف الخلفية وراء الرجال. وبخلاف الحلقة، فإن المرأة كانت هي صاحبة المبادرة في الممارسة الفرجوية. ولم تجد مصادرها-كما أسلفنا- بأسماء بعض الشيخات اللواتي كن يقمن الفرجات بمدينة سلا. ولا ندري هل تم جلب من أشرنا إليهن من شيخات النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أم تمت المنادة على اللواتي اشتهرن في العقد الثالث من القرن الماضي مثيلات: البوكدراوية والزروقية والعرجونية وغيرهن⁶². وإذا لم نقف على القدر المالي الذي يقدم للشيخات مقابل أداء مهمتهن، فقد أفادنا أوجين أوبان بأن الدخل السنوي للشيخة بريقة تراوح سنة 1903 ما بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف ريال⁶³. ويمكن تلمس أهمية هذا المبلغ المالي من خلال الاستئناس بمقارنته -مثلا- بالقيمة التجارية لرؤوس قطيع البقر. فقد بيع ثور أحمر بسوق الخميس بسلا بتاريخ 24 جمادى الثانية 1333/9 ماي 1915 بسبعة وستين ريالا⁶⁴. وحسبما يلاحظ من المقارنة، فإن ما كانت تجنيه الشيخة المذكورة من الغناء والرقص هو قدر مالي له بال يومئذ. ويبدو أن الشيخة المسؤولة عن الفرقة والتي تسمى الطباعة، أي التي تطبع-تدشن- وجبة العمل وتنهيها وتصرف حسبما تتطلبه ظروف عملها⁶⁵، يبدو أن ما كانت تحصل عليه من مقابل مادي يفوق حصص الأخريات.

⁶¹ - نفسه.

⁶² - ع. ركوك، الشيخات، م.س، ج16، ص: 5444.

⁶³ - Eugène Aubin, Le Maroc d'Aujourd'hui, Paris, Librairie Armand Colin; 1912, p: 347.

⁶⁴ - رسم عدلي بتاريخ 24 جمادى الثانية عام 1333/9 ماي 1915 (وثيقة خاصة بمجزة أسرة امسطس الحسني).

⁶⁵ - ع. ركوك، الشيخات، م.س، ج16، ص: 5444.

ولا يمكن الحديث عن غناء الشيوخ دون الإشارة إلى غناء فئة أخرى من نساء سلا وهن المومسات. وغير خاف، أن التدخل الأجنبي أدى إلى ظواهر طالت المجتمع السلاوي منها تدني القيم الأخلاقية. ويمكن استجلاء ذلك من خلال ما كتبه محتسب المدينة، أحمد الصبيحي إلى رئيس المجلس البلدي بها بتاريخ 22 جمادى الأولى عام 1333/ 4 أبريل 1917، مذكرا إياه بأن أهل سلا طالما ترددوا عليه في الشكاية حول مسألة امتلاء المدينة بالباغيات في الفنادق والأسواق العامة حيث كثرة المارين الذين يسمعون غناءهن ورقصهن وبين الديار أيضا حيث يسمع الجيران ضجيجهن⁶⁶. تظهر هذه الرسالة أمرين: أولهما هو حضور غناء المومسات ورقصهن ببعض فنادق سلا. وإذا لم يفصح مصدرنا عن نوع غنائهن فيبدو أن الأمر يتعلق بمقطوعات من بعض العيوط وأن كل واحدة منهن تعطي طابعا شخصيا لغنائها ورقصها. أما الأمر الثاني فهو استفحال الرذيلة بسلا، الشيء الذي كان يرفضه السلاويون رفضا باتا. فعبرة "امتلاء المدينة بالباغيات" دليل على أن هذا الداء انطلق مع احتلال المستعمر للمدينة سنة 1911. وقد ألح السلاويون على وجوب تطهير المدينة من وجود الباغيات بين ظهرانيهم، مما يفسر إقدام رئيس المجلس البلدي على جمع هؤلاء المومسات بمحل في طرف المدينة بعيدا عن الأسواق العامة والديار⁶⁷. وما لا شك فيه أن هذا الإجراء لم يرض السلاويين الذين كانوا يرمون من وراء حركتهم الاحتجاجية قطع دابر الفساد بمدينتهم. ولم نقف على مكان تجميع المؤسسات بسلا وإن كنا نرجح أن الأمر قد تم في أحد الفنادق الموجودة قرب باب فاس أو باب سبتة لكونهما بعيدين عن نواة المدينة التي تقطنها أعرق الأسر السلاوية المعروفة بشدة تدينها وحيائها. مهما يكن، فإن هذا الإجراء الترقيعي يجسد بوضوح النوايا الحقيقية للمحتل الأجنبي الذي بذل قصارى جهده في زرع بذور الفساد في البلاد لا خدمة العباد. وتتضح الصورة أكثر في الثلاثينيات من القرن الماضي حيث رخصت سلطات الحماية في فتح دور

66 - أحمد الصبيحي، الحسبة، م.س، ج 3، ص: 58.

67 - نفسه.

للغناء في فندق لاركوجي بارمادة حشرت فيه بنات الهوى يشاهدن من ثقب الباب وهن يغنين ويعاقرن الخمر ويشربن الدخان وسط جنود من اللفييف الأجنبي ومن الطبقة المتدنية من الأفارقة⁶⁸. هكذا، إذا عرفت مدينة سلا المغنيات النقيات وأنها مهد السماع، فقد اندس بين ظهراي أهلها غناء الشيوخات والمومسات، الشيء الذي لم يكن ليرضي ساكتتها. وحتى بالنسبة للغناء النقي، ينبغي ألا نتوهم أن ذلك لم يجد معارضا في سلا، وهي المدينة التي عرف أهلها- كما أسلفنا- بشدة تدينهم والمحافظة على مكارم الأخلاق. فالفقهاء، عموما، ينجحون إلى إنكار السماع "لأن أكثره هو ولعب. أما الغناء المجرد من الآلات فهو على الجواز في أصله لأنه يرجع إلى الإنشاد"⁶⁹. ويلاحظ أن المولى سليمان قد استنكر ذلك جملة وتفصيلا إذ "ليس في دين الله ولا شرع نبيه أن يتقرب إلى الله بغناء أو شطط"⁷⁰. لقد جاء هذا الاستنكار ليكشف عن رغبة جامحة لدى السلطان في إيقاف بعض الانحراف لدى الطوائف الدينية. ومن ثم، لم يقف -فيما يبدو- موقف المعارضة من السماع.

وصفوة القول، فإن عراقة الموسيقى والغناء بسلا لا يختلف فيها اثنان. وتبين طقوس أفراح السلاويين على نحو واضح أنهم ظلوا متشبثين بإرثهم الحضاري عن طريق حرص السلف على تكوين الخلف، رغبة في الحفاظ على التراث الحضاري وترسيخه. بيد أن معلوماتنا ما تزال ناقصة حول تراجم أهل هذا الفن وإنتاجهم الفكري خلال القرن الثاني عشر/18م وما قبله. كما أن مصادرنا تظل خرساء عن الإجابة عن واقع التسلية الشعبية بسلا قبل فترة الحماية. لذا، نأمل أن يتم نفص الغبار عن ذخائر الخزانات الخاصة بهذه المدينة وتمكين الباحثين من الاطلاع عليها ودراساتها حتى يتسنى لهم ملء الثغرات الموجودة في تاريخ هذه المدينة المجاهدة.

⁶⁸ - قاسم الزهيري، المجتمع السلاوي في الثلاثينيات، ضمن الندوة العلمية للعدوتين، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية،

1994، ج1، ص: 139.

⁶⁹ - الحسن البوسي، رسائل البوسي، الرسالة الثالثة عشرة، تع. فاطمة القبلي، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1981، ج2، ص: 430-435.

⁷⁰ - انظر نص رسالة المولى سليمان إلى أرباب الطوائف عند: الزباني، الترجمة الكبرى، تع. عبد الكريم الفيلالي، الرباط، 1967، ص: